يُطبَع لأوّل مرّة

الصِّراع بَيْنَ العَقلِ والقلبِ

الدكتور مصطفى السباعي

دار الورّاق للنشر والتوزيع

دار النيّرين للطباعة والنشر والتوزيع

الصراع بين العقل والقلب

الدكتور مصطفى السباعي



للطباعة والنشر والتوزيع





الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



بيروت ـ هاتف وفاكس ٦٦٤٤٩٩/٠١ ـ ص ب: ١٤/٦٣٨٠
E.Mail:msibaie @hotmail.com
E.Mail:warrak @maktoob.com

المملكة العربية السعودية ـ الرياض ـ الرمز ١١٣٩١ ص ب ٦٤١
هاتف : ٤١٦٢٥٢٧ ـ فاكس ٢١٧٠٦٤٢



ص.ب : ٧٦٠٣ ـ دمشق ـ شارع الفردوس
هاتف : ٢٢٣٠٩١٤ ـ فاكس : ٢٢٣٩٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذه رسالة للدكتور مصطفى السباعي، رحمه الله، بعنوان **«الصراع بين العقل والقلب»** وهي عبارة عن حديث مسجل نشر للمرة الأولى في مجلة حضارة الإسلام في العدد الخامس من السنة السادسة عام ١٣٥٨هـ/١٩٦٧م. وقد نشر كما ورد في التسجيل، وقد ارتأينا نحن أبناء المؤلف رحمه الله أن نقوم بطباعة كافة تراث والدنا سواء كان المطبوع أو المنشور في جرائد ومجلات، أو المسجل على أشرطة من محاضرات وندوات وأحاديث إذاعية.

فقمنا بإعادة طبع كافة الكتب التي سبق طبعها بإخراج جديد ومتميز وباشرنا بطباعة المقالات التي أشرنا إليها، وهذا الكتاب هو أول الأعمال غير المطبوعة التي

سوف يليها كتاب يتضمن افتتاحيات مجلة حضارة الإسلام ويليه كتاب المقالات المنشورة في مجلة الفتح المصرية. آملين من عملنا هذا أن ينفع الله بها المسلمين وأن نقدم ما نستطيع من فكر وتراث والدنا، رحمه الله، الذي ما زالت كتاباته وأفكاره تعيش معنا معاصرة لأيامنا وكأنه ما زال يكتب ليومنا الحاضر.

وختاماً نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعل من عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يضعه في ميزان حسناتنا وأن يكتبه ثواباً لوالدنا واستمراراً لعمله الصالح والعلم الذي ينتفع به إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين

الناشر

محمد بن مصطفى السباعي

بيروت ١٩٩٩/١٠/١٥

الصراع بين العقل والقلب

هذه الحياة صراع بين العقل والقلب، ذلك هو تاريخ الإنسان وتاريخ الجماعة وتاريخ الشعوب. وما العقل في حقيقته إلا ميزان يوازن في كل أمر بين خيره وشره، بين نفعه وضرره، أما القلب فهو ذلك الميل والاتجاه إلى فعل الشيء أو تركه. فالعقل ميزان والقلب هو الموجه الأول لأعمال الإنسان. ونحن نعلم أن العقل **مناط التكليف** في الشرائع كلها، فحين لا يكون الإنسان عاقلًا لا يكلف بشيء.. ولكننا إذا تصفحنا آيات القرآن وجدنا هذه الآيات تصب اللوم على القلب لا على العقل، فالقرآن يصف القلب أحياناً بالسلامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١] ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾. ويصف القلب بالضلال والعمى والقسوة، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ويقول تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ . .﴾ ويقول تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

واستمعوا إلى قول رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعي الرحمن يُقلِّبه كيف يشاء»[1] وكان من دعائه ﷺ: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[2] ويقول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

إذن، إذا كان العقل مناط التكليف وجوداً وعدماً فإن القلب هو مناط الشقاء والسعادة، والنجاة والهلاك، من هنا كان ينبغي أن نحدد موقفنا من هذا القلب ومن هذا الصراع القائم بين العقل والقلب في كل مرحلة من مراحل التاريخ. هل نحن يسيِّرنا العقل؟ أم يسيِّرنا القلب؟ وأريد بالقلب هنا قبل كل شيء ما يسميه الناس أحياناً نفساً... وما يسميه الناس أحياناً روحاً... وما يسميه الناس أحياناً عاطفة... فكلها الآن عندي أسميها القلب:

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٥٤).

(٢) سنن الترمذي: (٣٥١٧).

الميل ـ العاطفة ـ النفس ـ الروح ـ القلب كلها بمعنى واحد.

إن المتتبع لميول الإنسان وحياته والمتتبع للتاريخ يجد أن هذه الإنسانية ليست دائماً وليدة العقل، بل نحن نعيش في هذه الحياة بفضل القلب. خذ مثلًا حياتك أنت كإنسان، أنت لو حكَّمت عقلك في هذه الحياة لما رأيت لهذه الحياة قيمة ومعنى. من أين ولدت؟؟ كيف جئت إلى هذه الحياة؟؟ لماذا تعاني الشقاء؟؟ لماذا تمرض؟؟ لماذا تموت؟؟ أمور لو حكمت فيها العقل لخرجت بنتيجة واحدة: تعيش في ظلمات بعضها فوق بعض، وهذه الحياة التي أتيت إليها، أهي كلها مسرات؟ كلا. هل هي في أكثرها مسرات؟ كلا. لا تستطيعون أن تجدوا إنساناً كانت حياته كلها مسرات بل أكثر حياته مسرات. وإنما نحن كبشر نعيش على ظهر هذه الأرض وحياتنا تملؤها الآلام أكثر من المسرات. إذا عددت أيام بؤسك، وأيام مرضك، وساعات همّك، وساعات جزعك، وساعات ما يصيبك من حزن على فقد أصدقاء، وعلى فقد أقرباء أو فوات منفعة، لوجدت أن هذه الساعات والأيام تعادل تسعين بالمئة ٩٠٪ من تاريخ حياتك.

وإذا كان الأمر كذلك فلو أننا نسير في هذه الحياة بوحي العقل لوجب أن نكره الحياة، ولكننا جميعاً نحب

الحياة مع كل آلامها، ومع كل شقائها، ومع كل تعاستها، نحن نحب الحياة. ولا تجد إنساناً يزعم صادقاً أنه يكره الحياة كإنسان، ويكره الحياة كذي قلب، ويكره الحياة كذي ميول وعواطف، لكننا نحب الحياة. وإذا كرهنا الحياة، فإما أن يكون ذلك في ساعة من ساعات اليأس وساعات القلق وساعات الضجر والملل، أو إنما نكره الحياة لأننا نطمح في حياة أكمل وأتم. أما أن يكون الإنسان في هذه الحياة يكره الحياة لذاتها فلا تجدون إنساناً واحداً يميل إلى ذلك. إذن نحن نتخلى عن حكم العقل في حبنا للحياة ونسير في حب الحياة وراء قلوبنا وعواطفنا وميولنا وأهوائنا.

خذوا لذلك مثلًا آخر: هذا الطعام الذي يأكله أحدنا حكّموا العقل فيه ألا تجدون أن من سخرية الحياة أن يتعب ثلاثة أرباع الناس ويضيع ثلاثة أرباع الحياة في وجبة الطعام نبتلعها في عشر دقائق؟! هاتوا وجبة من الطعام مكونة في الصباح من خبز وجبن ومكونة في الظهيرة من خبز ورز ولحم وفاكهة ثم احسبوا كم تعبت آلاف من الأيدي في هذا الخبز، وفي هذا الجبن، وفي هذا اللحم، وفي هذه الفاكهة، كم تعبت آلاف من الأيدي، وكم ضاعت آلاف من الأيام والساعات حتى وصلت إلينا، فإذا بنا نلتهمها في عشر دقائق، ويذهب أكثرها فضلات!

ما الحياة، ما هذه الحياة التي يشقى ثلاثة أرباع الناس ويضيع الناس ثلاثة أرباع أوقاتهم في سبيل وجبة طعام، تذهب في عشر دقائق، خذوا لذلك مثلًا آخر: هذه الأم إنها تعد نفسها شقية كل الشقاء إذا كانت عاقراً لا تلد، وهي تبحث وراء الأطباء تبحث مع الأطباء عن طبيب يستطيع أن يبشِّرها بأنها ستلد، تعطيه كل ما تملك، ومع ذلك هي تعدّ نفسها شقية لأنها لا تلد، فإذا حملت وولدت ماذا يكون من آلام في الحمل.. آلام في الطلق... آلام في الولادة... آلام في الرضاعة... آلام في الحضانة... آلام في التربية... ثم مع ذلك كله يخرج الولد من يدها إلى أن يستقل ببيت جديد وامرأة جديدة وعمل جديد. لو حكمت هذه المرأة عقلها لوجدت أنه من الجنون أن تبكي على الولد.

وقل مثل ذلك في الأب الذي يعمل جاهداً ليؤسس بيتاً ليتزوج امرأة لينجب أولاداً، يشقي حياته كلها ليقدم لامرأته وأولاده، وإذا كان في الليل قد لا يذوق طعم النوم من بكاء طفله الصغير. فإذا استيقظ وابتسم طفله الصغير بسمة واحدة كان ذلك مسحة لآلام هذا الأب في ليله الطويل. والأب لا يستفيد من ولده شيئاً، الأب يقدم للولد كل شيء ويقدم أحياناً حياته، الأم كذلك، وكم من الأمهات فارقن الحياة حين جاءهن نعي أولادهن أو

سجنهم أو عذابهم، ومع ذلك: فهل نحن مع أولادنا، مع زوجاتنا، مع أبنائنا، هل نحن نعيش بحكم العقل أم بحكم القلب والعاطفة؟ إننا نعيش بحكم القلب والعاطفة.

خذوا مثلًا آخر قضايا يقدم الإنسان حياته ثمناً لها، قضايا الشرف. إن كل إنسان يستعذب الموت في الدفاع عن شرفه وليس في التاريخ شيء مستغرب، إذا قلنا لا تخلو أمة من الأمم من أفراد يموتون دفاعاً عن الشرف بحسب مثلها العليا، إما شرف العرض أو العائلة أو كرامة النفس أو غير ذلك، تعالوا نحاكم الموت دفاعاً عن الشرف بحكم العقل - تفقد الحياة دفاعاً عن الشرف!! الحياة، الأكل، الطعام، النعيم، الولد، الزوجة، - تفقد ذلك كله دفاعاً عن الشرف! إذا مت فقدت ذلك كله، وماذا ينالك من الشرف بعد أن تموت؟ لا شيء! ومع ذلك نجد أنفسنا مستعدين دوماً أن نموت دفاعاً عن الشرف، إذن نحن حين نموت دفاعاً عن الشرف إنما نسير وراء عاطفتنا وقلبنا لا وراء عقولنا.

خذوا لذلك مثلًا آخر، الكرم، ما الكرم في حقيقته إلا أن تعطي المال سهلًا ليناً بعد أن جمعته بمشقة وعسر، أنت تجمع المال تشقي فيه نفسك تتعب فيه حياتك كلها ثم بعد ذلك تقدمه لطالبه، إما وليمة.. وإما

صدقة.. وإما شهامة.. تدفع مالك كله، أهذا حكم العقل؟ إن العقل لا يسمح لك أن تعطي في دقائق معدودات، ما جمعته في سنوات، والعقل لا يسمح لك أن تعطي ما جمعته بمشقة وصعوبة أن تعطيه بكل يسر وسهولة. إذن أنت تخالف العقل، ومع ذلك فالكرم في كل أمة صفة محمودة اتفقت الأمم شرقيها وغربيها على أن يحمد الناس الكريم.

هذا مثل يدلكم على أننا في الحياة لا نسير دائماً وراء العقل وإنما نسير كثيراً من الأحيان وراء القلب والعاطفة. ولكننا نعترف بأننا في تغليبنا القلب والعاطفة على العقل سعداء، ولولا تغليب القلب والعاطفة على العقل لما عاش الإنسان على وجه الأرض، لولا عاطفة الأب نحو ولده، والأم نحو وليدها، وعاطفة الأخ نحو أخيه، والجار نحو جاره، والمواطن نحو وطنه، لما عمرت الدنيا بمن عليها اليوم. إذن فكثيراً ما يكون الصراع بين العقل والقلب، وكثيراً ما ينتهي الصراع بين العقل والقلب بانتصار القلب على العقل. كثيراً ما يكون ذلك خيراً وبركة على الإنسان والإنسانية. ولكننا نجد بجانب ذلك أن انتصار القلب أو العاطفة على العقل شقاء ما بعده شقاء. خذوا لذلك مثلًا في حياة الفرد أيضاً. إن الإنسان حين يريد أن يسكر ينهاه عقله عن السكر لأن

حكم العقل أن هذا ضار، ولكن عاطفته وقلبه وهواه هي التي تجعله يسكر، فهو حين يترك حكم العقل ويستجيب إلى نداء القلب والعاطفة، إنما يفعل ذلك شقياً. ومثل ذلك المقامر، ومثل ذلك الذي يأكل طعاماً حرمه عليه الطبيب لضرره، ومثل ذلك الذي يمضي حياته مجرماً بين السجون ينتقل من سجن إلى سجن ولا يكاد يخرج من سجن إلا ليدخل سجناً آخر، فالفرد في هذه الحالة حين يترك حكم العقل يشقى ويضل ويتعب.

وكما رأينا في حياة الفرد أن انتصار القلب على العقل كثيراً ما يجر له السعادة وأن انتصار القلب على العقل كثيراً ما يجر له الشقاء. إننا لنجد ذلك في حياة الجماعات، ففي حياة الجماعات أمور تفعلها الجماعات تخالف بها عقلها ولكنها راضية مطمئنة تعتبر بذلك سعادتها. الجهاد في سبيل الله، أو في سبيل الوطن، أو في سبيل الكرامة، أو في سبيل الاستقلال، سموه بما شئتم، فالجهاد أن تندفع الأمة لتقدم شبابها دفاعاً عن الوطن، ودفاعاً عن الحق، ودفاعاً عن الدين، ودفاعاً عن الكرامة، هذا في حكم العقل سخافة، لماذا يقتل الإنسان نفسه ليعيش مجتمعه، إذا مات فماذا يستفيد من أن يعيش مجتمعه بعد ذلك. فالجهاد فكرة الجهاد في نظر العقل سخافة ولكنها في نظر القلب فضيلة، والجماعات كلها

في كل العصور من أقدم العصور حتى اليوم تترك نداء العقل وتستجيب إلى نداء القلب والعاطفة في قضية الجهاد. خذوا مثل ذلك الحكم والحكومة. من الحكومة في النظام الديمقراطي؟ الحكومة أشخاص نحن وضعناهم بأيدينا على كراسي الحكم، فالنائب أنا الذي انتخبته، والوزير انتخبه النائب الذي انتخبته أنا، ورئيس الجمهورية انتخبه النواب الذين انتخبتموهم أنتم، ومع ذلك فنحن الذين انتخبنا هؤلاء أعطيناهم الحق في أن يسجنونا، في أن يعاقبونا، في أن يحدوا من حرياتنا، لماذا نفعل ذلك؟ إن حكم العقل بداهة يقول لك: هل أنت مجنون تعطي أنت إنساناً صلاحية ليستعمل هذه الصلاحية ضدك يوماً ما؟! هذا صحيح ولكن نداء القلب والعاطفة ينفر من حكم العقل ويقول: إنني لا أستطيع أن أعيش في الحياة إلا بأناس يتولون شؤوني.

مثل ذلك السياسة، لماذا يشتغل الناس بالسياسة؟ إننا لا نزال نسمع حتى الآن من الذين لا يبالون بشؤون الأمة - تجار، صناع، ملاكين - يقولون لك فلان مجنون تارك شغله وتارك بضاعته وتارك ماله وتارك أهله. لِم يلاقي السجون والتشريد والعذاب والاضطهاد؟ ولو أن هذا السياسي حكم عقله لقال له: أنت لماذا تتعب؟ لماذا تشقي نفسك؟ لماذا تشقي أولادك؟ لماذا تعرض نفسك

للسجن؟ لماذا تُسجن والناس أحرار؟ لماذا تُشرد والناس مقيمون في أوطانهم؟ أبناء أمتك أنت الذين تشرد من أجلهم هم مقيمون في أوطانهم وأنت تشرد، هم أحرار وأنت تسجن، هم أحياء وأنت تقتل، إن هذا منتهى الجنون، ومع هذا فما استجاب سياسي للجنون الذي يحكم به العقل وإنما استجاب السياسيون والمصلحون دائماً لحكم القلب وحكم العاطفة.. مع أن الإصلاح في حقيقته ليس إلا شقاء وتعباً يسهر حين ينام الناس، وتشرد حين يطمئن الناس، وموت حين يحيا الناس، وفقر حين يستغني الناس، وشتم ومسبة وتعرض لكلام الناس حين يكون أكثر الناس سالمين في أعراضهم وفي كراماتهم. ولكن القلب يطلب من كل من آتاه الله غيرة على أمته أن يقوم بواجب الإصلاح والدعوة.

هنا يستجيب المصلحون لنداء قلوبهم بعد أن تركوا نداء عقولهم. واستجابة الجماعة هذه لنداء القلب فيها كل الخير للقلب وللجماعة وللمصلحة. خذوا مثلًا لذلك أيضاً ويحضرني الآن مثل المخترعين. أما سمعتم بكثيرين قدموا ثرواتهم كلها في سبيل تجربة علمية، ماتوا وهم فقراء ليصلوا إلى أمر من الأمور وهذا الأمر ليس لهم، ليس فيه مصلحة لهم، المصلحة للإنسان، فالعقل المجرد الخالي من القلب يقول لك: ليس من العقل أن تفقر

نفسك ليستغني الناس. وكثيرون من الذين يقومون بالتجارب العلمية يلقون حتفهم في هذه التجارب. ولقد حدثنا صديق منذ أيام كان في أمريكا أن سورياً ذهب إلى أمريكا ليعالج من مرض السرطان في رأسه وقد أعيى الأطباء في كل بلدان العالم معالجة هذا المريض. وأخيراً قيل له إن في أمريكا مستشفى تقام فيه التجارب العلمية على فائدة الإشعاع الذري في القضاء على السرطان - مستشفى جديد - وذهب إلى هناك وفعلًا دخل هذا المستشفى، وعني به طبيب من أطباء المستشفى أطباء الذرة. فوجد هناك أن كل إنسان يحمل على كتفه لوحة بمقدار ما يستطيع أن يتحمل من الإشعاع الذري، وأنه كلما أصابه شيء من الإشعاع الذري وجد هذه الكمية قد أصبحت منقوشة على هذه اللوحة حتى لا يتعرض الإنسان لكمية من الإشعاعات الذرية أكثر مما يتحملها جسمه فيموت.

يقول هذا الصديق: إن هذا المريض شفي بواسطة الإشعاع الذري وقد سر الطبيب لذلك كثيراً، ولما أراد أن يخرج طلب منهم الحساب على النفقات التي يطلبونها فقالوا: لو أردنا أن نطلب منك نفقة بمقدار ما كلف لما استطعت - ثروتك كلها لا تكفي - لأن هذه الأشياء تكلف كثيراً. وهذا مستشفى على حساب الحكومة. وقال

له الطبيب الذي أشرف على علاجه: إنني مسرور لأنك شفيت وهذه تجربة وأنا مسرور لأني نجحت فيها وأريد أن أراك قبل أن تسافر يوم الاثنين وأنا مستعد أن أستقبلك في بيتي لنتعشى معاً. ذهب الرجل يوم الاثنين إلى بيت الطبيب وإذا به يجد البيت في وضع غير عادي. ماذا؟ لقد مات ذلك الرجل، مات الطبيب قبل موعد العشاء بساعة، مات متأثراً بالكمية التي أصابت جسمه من الإشعاعات. ترى ألا ترون أن العقل المجرد الخالي من القلب يقول: إن هذا الطبيب كان مجنوناً لأنه عرض نفسه للموت وترك أولاده، وترك الحياة في سبيل الناس.

إذن الجماعات في تاريخها الطويل والحضارة في تقدمها الإنساني والأمم في نشوئها مدينة للعاطفة والقلب أكثر مما هي مدينة للعقل، ولو أن كل مخترع، ولو أن كل جندي، ولو أن كل عالم، ولو أن كل سياسي، ولو أن كل مصلح استجاب لنداء العقل المجرد لما قامت حضارة، ولما استقامت أمة، ولما نشأت دولة، ولما انتفع الناس بمبتكرات العلوم والمكتشفات الحديثة. هذه الحضارة إذن، وهذه الأمم التي تنعم باستقلالها مدينة للذين تركوا نداء العقل المجرد واستمعوا إلى نداء القلب والعاطفة والوجدان.

ولكننا مع ذلك نقلب صفحةً أخرى فإذا بنا نجد أن

اتباع العاطفة والقلب جرّ على الإنسانية كثيراً من الشقاء. إن تشرشل مثلًا حين يعد على أن يساند الصهيونية وعلى أن يفتخر بأنه نصير الصهيونية إلى آخر لحظة من حياته أكان يستمع في ذلك إلى نداء عقله؟ كلا، إن عقله المجرد ينهاه عن أن يكون نصيراً لحركةٍ باغيةٍ لا تحيا ولا تقوم إلا على أساس أمة أخرى ووطن يستلب من أصحابه. هذه هي الصهيونية، ومع ذلك فلأن تشرشل نشأ في وسط صهيوني وكان له أصدقاء من الصهيونيين ولا يزال الصهيونيون يحيطونه بعنايتهم ورعايتهم وصداقتهم كان في إعلانه نصرة الصهيونية مستجيباً لنداء العاطفة أكثر مما يستجيب لنداء العقل. ولقد شقيت الإنسانية لاستجابته للعاطفة أكثر من استجابته لنداء العقل. والأمم اليوم في هيئة الأمم الكبرى أيستجيبون لنداء العقل أم يستجيبون لنداء العاطفة والهوى والقلب؟ لا، إن أمريكا مثلًا حين تحارب في أروقة هيئة الأمم أن تبحث قضية فرنسا في مستعمراتها أو في بلاد المغرب العربية تحارب ذلك بكل قواها لا تستجيب إلى نداء العقل، لا تستجيب إلى نداء العلم الذي تدّعي نشره بين الناس، لا تستجيب إلى نداء المبادىء وتتعالى أنها كانت أول من أعلنتها في ميثاق حقوق الإنسان، إنما كانت تستجيب بذلك إلى نداء العاطفة والهوى لأن مصلحتها أن لا تغضب فرنسا ومصلحة أمريكا ليست مصلحة عقل بل

مصلحة منفعة ومصلحة لذة ومصلحة شهوة في الاستيلاء على مقدرات الأمم، والمصلحة الاستعمارية، ليست مصلحة عقل أبداً. المصلحة الاستعمارية هي التي تجعل أمريكا تساند فرنسا إلى آخر الشوط.

فالإنسانية اليوم تشقى بهذا التغليب من جانب العاطفة على جانب العقل لدى السياسيين ولدى القادة في داخل أمتنا، ولدى الذين يسيطرون على شؤون الأمم. هذا الانحلال الخلقي سبب للشقاء، وهذا التفكك الاجتماعي سبب للشقاء، وما يترك أحدنا القيام بواجبه إلا وهو يستجيب في ذلك إلى هوى أو عاطفة باطلة. فنحن اليوم نعاني شقاء لا لأننا نحكم العقل بل لأننا نحكم العاطفة في كثير من شؤوننا وأمورنا.

أيها الإخوان إذا كان هذا هو شأن الصراع بين العقل والعاطفة قد يكون انتصار القلب والعاطفة أحياناً مبدأ خير للإنسانية وقد يكون انتصار القلب والعاطفة أحياناً مبدأ شر كبير للإنسانية. ماذا ينبغي إذاً أن نعمل؟ ينبغي أن تتجه جهود المصلحين جميعاً إلى إحكام هذه العاطفة في القلب ما دام القلب هو الذي يوجهنا أفراداً وجماعات، عقلاء وجاهلين، أتقياء ومنحرفين، قدامى ومحدثين، إن الخير كل الخير أن يضبط هذا القلب الموجه الأول لحياة الإنسان وأعمال الإنسان، أن يضبط

هذا القلب حتى يتجه اتجاهاً كريماً حسناً يكون في انتصاره انتصار للخير، هذا هو الذي تحتاج إليه الإنسانية اليوم.

إن شقاء الإنسانية اليوم يا أيها الإخوان ليس لنقص العلم ولا لنقص العقل، إن حضارتنا اليوم تملك من وسائل العلم ما لا تملك حضارة ماضية على وجه الأرض حيث تيسرت وسائل العلم والثقافة لكل إنسان، وإن ما تقرأ اليوم من الثقافة في عمرك القصير كان لا يستطيع مائة إنسان أن يقرؤوه فيما مضى من الأيام، فالعلم اليوم أكثر منه في أي وقت مضى. والعقل اليوم أوسع منه، ذلك أن العلم يوسع آفاق العقل وبذلك لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم شقاء عقل ناقص أو علم ناقص، وإنما الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم شقاء قلب مريض أو قلب ميت.

إننا لا ننكر ولا يستطيع أحد أن ينكر معنا أن عمر بن الخطاب مثلًا كان أجدى للإنسانية وأرحم بالناس وأكثر براً بالأمم المغلوبة من ترومن أو أيزنهاور، إن عمر بن الخطاب أنكر على واليه عمرو بن العاص لأن ولده الصغير ضرب ولداً قبطياً وقال له: أنا ابن الأكرمين. اقتص من ولد عمرو بن العاص ومن عمرو بن العاص نفسه. إن هذا أبر بالإنسانية من ترومن

إذ سمح له ضميره إن كان له ضمير أن يشرد مليوناً من الأنفس حتى إذا شكا هذا المليون إلى هيئة الأمم ولى ضاحكاً على هذه الجماهير التي شردت عن أوطانها ولم يعتبر تشريدها ظلماً ولا عدواناً. عمر خير من ترومن إذ سمح له ضميره إن كان له ضمير أن يشرد مليوناً من الأنفس حتى ويقوله التاريخ ويقوله كل ذي ضمير إنساني على وجه الأرض. ومع ذلك فعمر كان أقل علماً من ترومن، أقل ثقافة من ترومن، أقل رقياً مادياً من ترومن.

فالإنسانية سعدت بالعلم القليل مع القلب الكبير أكثر مما سعدت بالعلم الكثير مع القلب الميت أو المريض. وصلاح الدين الأيوبي لا شك أنه كان أنقص من كل ملوكنا ورؤسائنا ثقافة لا شك ولا ريب. ولكن صلاح الدين كان أبر بالمسلمين وأكرم على الله وأجدى لتاريخ الإسلام من كل ملوكنا ورؤسائنا اليوم، لقد استنقذ المسلمين من الاستعباد، لم ينقذ جيلًا واحداً وإنما أنقذ أجيالًا منذ جيل صلاح الدين حتى اليوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومع ذلك هذا الرجل مات بعد أن ترك في كل بلد أثراً من آثار البر من مستشفى أو مدرسة أو مسجد أو ملجأ، قالوا: ولقد مات يوم مات ولم يترك لأولاده وورثته درهماً ولا ديناراً. أترون هذا الرجل في قلة علمه وثقافته بالنسبة لثقافة ملوكنا ورؤسائنا اليوم كان

أقل جدوى لأمتنا من ملوكنا ورؤسائنا اليوم أم كان أكثر منهم جدوى وأكثر أثراً في إسعادهم وتحريرهم من الشقاء والاستعباد؟ إن شقاء الإنسانية اليوم بهذه الحضارة أنها صححت العقل ولكنها أفسدت القلب، أنها قوَّت العقل ولكنها أضعفت القلب، أنها وسعت آفاق العلم ولكنها ضيقت آفاق فضائل النفس والروح والقلب. .

ومن أجل ذلك كنا نحن أبناء هذه الحياة وأبناء الإسلام جديرين بأن نفتش عن السعادة لا في آفاق الذين اتسعت علومهم وماتت قلوبهم بل في آفاق الذين اتسعت قلوبهم مع اتساع عقولهم. أيها الإخوان، إن الإسلام يسعى قبل كل شيء إلى إيجاد القلب الحي السليم في كل إنسان، تزكية النفس هي أول ما يطلبه الإسلام ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[1] إصلاح القلب هو أول ما يسعى إليه الإسلام «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» الإسلام يعنى بتربية القلب قبل كل شيء وهو واثق من أنه متى استقام للإنسان قلب يقظ سليم واتته كل وسائل السعادة. .

إننا لا نجد في التاريخ صاحب قلب كبير إلا

---

(١) الشمس: ٩، ١٠.

وهو صاحب عقل كبير، ولكننا نجد في التاريخ كثيرين كان الواحد منهم صاحب عقل كبير ولكنه لا قلب له، وصاحب العقل الكبير الذي لا قلب له أو لا قلب معه شيطان يوسوس للناس بالفتنة والفساد والضلال... ومن أجل هذا ينبغي أن نحرص نحن قبل كل شيء على حياة قلوبنا، على سلامة قلوبنا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

سلامة القلب هي مبعث الفضائل كلها هي مبعث كل محمدة في الدنيا، وما أروع إعجاز القرآن حين جمع الخير كله في لفظ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ إنه تعبير معجز من تعابير القدرة الإلهية جاءت في آية من القرآن لتضع للمسلمين وللناس أساس السعادة بالقلب السليم. أما الذين في قلوبهم مرض فهم سبب كل شقاء لأنفسهم وللناس. أيها الإخوان اسمعوا مني هذه الكلمات وسيثبت لكم الزمن والدراسة صحتها: «صاحب العقل الكبير يستحق إعجابك ولكن صاحب القلب الكبير يستحق حبك وإجلالك» قد تعجب بذكاء لص، قد تعجب بذكاء محتال وتعجب بذكائه وعقله لكن لا تحبه ولا تجله. ولكنك أمام صاحب قلب كبير يسع الإنسانية

---

(١) الشعراء: ٨٩.

ويسع الناس يستأثر بحبك وإعجابك وإجلالك، إذاً فصاحب العقل الكبير قد يستحق إعجابك ولكن صاحب القلب الكبير يستحق حبك وإجلالك. إن العقل الكبير فضيلة لا شك، ولكن هذه الفضيلة تذهب بها رذائل القلب المريض. ولكن القلب الكبير مبعث كل الفضائل التي تنشأ من الإنسان. كل الذين خلدوا في التاريخ عظماء سعداء كان لهم عقل كبير وقلب سليم يسع الدنيا كلها، ولكن الذين خلدوا في التاريخ سفاكين أشقياء كان لهم عقل ضيق اتسعت آفاقه في الشر حتى سد منافذ السعادة على أنفسهم ذاتها. . .

أيها الإخوان إن الناس لا يريدون منكم أن تكونوا أكبرهم قلباً وأكثرهم خيراً. . . إن الناس لا يعيبون إخوانهم المسلمين إذا لم يكونوا كلهم حملة شهادات الدكتوراه. ولكن الناس يعيبون إخوانهم المسلمين إذا لم يكونوا كلهم حملة قلب كبير يقظ يسع الناس جميعاً. ومن هنا كان من الواجب عليكم أيها الإخوان أن تعنوا عناية كبيرة بهذا القلب، هذا القلب الذي حياته حياة لكم، للناس والذي موته ومرضه مرض لكم وموت لكم وموت للناس. إن دروسنا المقبلة ستتناول هذا القلب إن شاء الله أمراضه وعلله وعلاج هذه الأمراض والوسائل والتي بها نستطيع أن نضمن هذا القلب الكبير القلب

اليقظ القلب الحي الذي لا ينبثق منه إلا كل خير. ولكني أختم هذا الحديث بوجوب الاستعداد لتصفية هذا القلب. كل واحد منا الآن يجب أن يعزم عزماً أكيداً على أن يرجع إلى قلبه ليطهره وليصفيه وليبعث الحياة فيه، ولذلك مقدمات ثلاثة نستطيع الآن أن نحصل عليها إذا صممنا وأردنا أن نعيش بقلوب حية:

أولًا: الخطوة الأولى أن يتذكر كل واحد منا عظمة الله تبارك وتعالى وسلطانه. الإنسان يغتر بعلمه، وما علمه بجانب أسرار الحياة إلا قطرة في بحر. والإنسان يغتر بقوته وما قوته بجانب قوة الله إلا قوة ذرة إزاء جبل عال ضخم. والإنسان يغتر بفضله وما فيه من فضل إلا كان الله مُنشئه ومصدره ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1] فلئن كنت خطيباً فما أنت خلقت الخطابة في نفسك وإنما هو الله. ولئن كنت عالماً فما أنت الذي ركز هذا العلم في قلبك وإنما الله. ولئن كنت عابداً فما أنت في حقيقة أمرك الذي شققت طريق البر والهداية وإنما هو الله. فتجردوا من كل قوتكم إزاء قوة الله جل شأنه واذكروا دائماً قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) النحل: ٥٣.

رَمَىٰ﴾[1] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

أول الطريق إلى تصفية القلب أن يتخلى الإنسان عن كبريائه وغروره وعظمته والاعتزاز بفضائله إلى الله، جل شأنه فيرد ذلك كله إلى الله هذا أول الطريق لتصفية القلب.

ثانياً: والخطوة الثانية في هذا الطريق أن تذكر الموت ونهاية الحياة. مهما عمرنا في هذه الحياة فلن نعيش طويلًا. ولقد عاش من كان قبلنا ينعمون ويأكلون ويحكمون ويستبدون، ثم ماتوا وإذا هم اليوم تراب، فنحن سنصير إلى الزوال، ونحن سنلقى الله، ونحن سنموت، ونحن سنرد إلى حفرة ضيقة. إن تذكر هذه الحقيقة هو الخطوة الثانية في تصفية القلب فمن غفل عن حقيقة الموت قسا قلبه واستبد بالناس وطغى في شؤون الحياة، وانحرف عن الجادة، وعاش حيواناً يأكل ويشرب ويلعب. ومن ذكر هذه الحقيقة رق قلبه، وصفت نفسه، وعامل الناس بالخير إن كان حاكماً أبى لنفسه أن يطغى، وإن كان عالماً أبى أن يكتم علمه على الناس أو أن يشتري الدنيا بعلمه ودينه، وإن كان تاجراً أبى أن يجمع المال الكثير الذي سيتركه بعد موته لأولاده ولورثته في

---

(١) النحل: ٥٣.

(٢) الأنفال: ١٧.

سبيل شهوة من الحرام، أن يجمعه من الحرام ليحاسب عليه بين يدي الله عز وجل.

فالخطوة الثانية لتصفية القلب ذكر الموت والرجوع إلى الله والوقوف بين يديه والحساب العسير على الصغيرة والكبيرة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1]..

ثالثاً: والخطوة الثالثة أيها الإخوان في طريق تطهير القلب أن لا نغتر بطاعتنا ولا نيأس من معصيتنا. ذو الطاعة منا لا ينبغي أن يغتر بهذه الطاعة فإن قبولها لا يضمن إلا بفضل من الله جل شأنه. قد تستوفي شرائط الطاعة، ولكنك تفقد الإخلاص فيها. قد تصلي أحسن صلاة تتم ركوعها وسجودها وقراءتها على أحسن ما يذكر الفقهاء ولكنك تغتر بهذه الصلاة وأنت تصلي والشيطان يوسوس لك أنك سلكت طريق الخير والعباد والصالحين، فها أنت بين يدي الله تعبد الله بخشوع، لقد ودعت حياة الغفلة والجهالة. هذه الوسوسة نفسها تجعل عملك معلقاً على رحمة الله عز وجل فإن قبله كان فضلًا من الله وإن رده كان حكماً عدلًا لا ظلم فيه. فصاحب الطاعة ينبغي أن يتخلى عن الاغترار بطاعته وصاحب المعصية ينبغي أن لا

---

(١) الزلزلة: ٧، ٨.

ييأس من فضل الله تبارك وتعالى ورحمته.

ولقد قص علينا رسول الله ﷺ أن رجلًا قتل تسعة وتسعين نفساً ثم خطر في باله أن يتوب إلى الله فقال في نفسه: أترى لو أنني عدت إلى الله أيقبل توبتي بعد أن قتلت تسعة وتسعين نفساً فذهب إلى حبر أو راهب يسأله فقال له الراهب: وكيف يقبل الله منك التوبة وقد قتلت نفوساً محرمة بغير حق. فقال في نفسه: ما دمت قد ارتكبت هذا القتل فلأكمل على المئة. فقتل الراهب. ثم أتى إلى راهب آخر وقد أراد قلبه أن يستيقظ فقص عليه قصته فقال له الراهب: إن الله يقبل توبتك اذهب إلى القرية الفلانية فإن فيها أناساً صالحين فاجلس معهم وعاشرهم واكتسب منهم. فذهب الرجل وهو نادم في نفسه على ما فعل ومصمم على أن يستقبل حياة سعيدة كريمة فمات في الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. قالت ملائكة العذاب: إن هذا لم يعمل خيراً قط في حياته فنحن أولى به، وقالت ملائكة الرحمة: لقد جاء إلى الله تائباً منيباً بقلبه. فقال لهم الله عز وجل قيسوا ما بين الموضعين فإن كان أقرب إلى موقع الرحمة فاجعلوه مع أهل الخير والصلاح. فقاسوه فإذا هو أقرب إلى القرية بشبر واحد فقبضت روحه على أنه من أهل الخير والصلاح.

أيها الإخوان، هذا حديث يذكره لنا رسول الله ﷺ ليستبشر كل إنسان أنه مهما ارتكب من ذنوب ومهما قدم في ماضي عمره من معصية فإن الله تواب رحيم ولأن يستقبل بقية حياته بتوبة وإنابة خير من أن يستقبل حياته المقبلة بمعصية أيضاً. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك لو ملأت الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي» وليس معنى ذلك أن يستهين بمعاصيه، لا بل ينبغي أن يندم. وإذا كان في هذه المعاصي أخذ لحقوق الناس فينبغي أن يرد هذه الحقوق لأربابها ويعزم على أن لا يعود إليها، فالتوبة والإنابة إلى الله أول الطريق إلى تصحيح القلب وإلى تصفية القلب. ولقد قال بعض العباد الصالحين: «معصية أورثت ذلّاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً» فلا يحملن أحدكم معصية الله فيما مضى على أن ييأس من رحمة الله، ولا يحملن أحدكم أنه قدم فيما مضى عملًا صالحاً وعملًا طالحاً فخلط الطالح بالصالح على أن ييأس في مستقبل عمره، احرصوا على التوبة فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1] فاستفيدوا من عمركم المقبل إن أحدكم لا يدري كم يعيش فقد يعيش مئة سنة،

---

(١) أخرجه الترمذي.

وقد يعيش لحظة واحدة، فاحرصوا على أن يكون عمركم المقبل ولو لحظة واحدة عمراً طاهراً بريئاً حتى إذا قدمت على الله كان آخر عمرك في هذه الحياة القلب البريء الطيب الذي أراد أن يصحح ما بينه وبين الله عز وجل.

أيها الإخوان هذه هي الطرق الثلاثة التي أذكرها لكم الآن باختصار تتمة لهذا الحديث وختاماً له إذا اقتنعنا بأن القلب الحي اليقظ هو مناط السعادة وإذا اقتنعنا بأن يقظة القلب هي أهم ما يطلبه الإسلام.

ينبغي أن نعلم أن الطريق إلى تصفية القلب طريق طويل ولكن له خطوات ثلاث:

الخطوة الأولى: أن نذكر الله وسلطانه وعظمته فإذا بقلبنا يخلص من كثير من الأوهام والأمراض والأغيار..

الخطوة الثانية: أن نذكر الموت وقربه والوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب على ما نقدمه..

الخطوة الثالثة: أن نجدد التوبة الآن ولا يمنع أن أحدكم إذا تاب ثم وقع في معصية رغماً عنه في غفلة منه، أو عن جهل، وقع في المعصية الثانية، لا يمنعه ذلك من أن يجدد التوبة مرة أخرى فإن رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لأتى الله بقوم

يذنبون فيستغفرونه فيغفر لهم»[1] ويقول ﷺ: «والله إني لأتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2] هذا وهو رسول الله المعصوم من الخطأ المبرأ من الذنوب يجدد توبته إلى الله فما بالكم بنا نحن الخطائين المذنبين، كيف لا نجدد التوبة؟ وكيف لا يقبل الله توبتنا؟ وهو الذي قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[3].

قال الغزالي رحمه الله: «ينبغي للتائب أن يوقن بأن الله سيتوب عليه وإلا يكون شاكاً في وعد الله عز وجل» إذا استكملت شرائط التوبة الندم على الماضي والعزم على أن لا تعود وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، إذا استكملت شرائط التوبة فإن مقتضى صدق الله أن يتوب الله عليك إذا صدقت في توبتك بين يدي الله عز وجل. أسأل الله تبارك وتعالى أيها الإخوان أن يطهر قلوبنا ويوقظها ويحييها ويجعلها سليمة من الآفات والعيوب. وأن يحشرها مع الذين يقدمون عليه بعمل

---

(١) صحيح مسلم: (٢٧٤٩).
(٢) صحيح البخاري: (٦٣٠٧).
(٣) البقرة: ١٨٦.

صالح وقلب سليم، كما أسأله أن يذكرنا دائماً بعظمته وسلطانه، وأن يذكرنا بالموت والحساب بين يديه، وأن نتوب إليه توبة نصوحاً صادقة مخلصة حتى نقدم على الله تبارك وتعالى وقد رضي الله عنا وأكرم وفادتنا وحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والحمد لله رب العالمين.